السنة: الخامسة المجلد: 05 العدد: 01 ص ص: 183 - 200
ISSN 2543-375X EISSN 2676-1645

المشروعية الإبستيمولوجية في نقل المفاهيم العلمية إلى حقل الاتصال - ثنائية النَقل الميكانيكي والتَبيئة -

Epistemological legitimacy in the transfer of scientific concepts to the field of communication - Mechanical transfer and adaptation -

بن الصغير يعقوب [1]، جامعة قسنطينة 3
yakoub.benseghir@univ-constantine3.dz

تاريخ الإرسال: 2019/10/31 تاريخ القبول: 2019/11/29

ملخص:

يقترح هذا البحث فكرة التَّركيز على حركة استخدام وتوليد المفهوم العلمي في علوم الاتصال والإعلام؛ فقد ضلت عملية البناء الفكري في هذا الحقل لسنواتٍ طويلة تستقوى من مسوِّغ أنَّ الاتصال علم ملتقى Science Jonction؛ يتطور من خلال التَّنويع النظري و"تحاقل" المعارف عند تناول وفحص الظواهر الاتصالية والإعلامية.

ويرصد هذا البَّحث آليتين في حركة تبني المفهوم من وإلى حقل الاتصال؛ أما **الآلية الأولى** فهي "النَّقل" والتي تعبِّر عن الأسلوب الميكانيكي في استخدام مفهومٍ ما بشكل قد يشتِّت من دلالة المعنى أكثر مما يُبسِّطه، فيما **الآلية الثَّانية** "التَّبيئة" فتُعبِّر عن نشاط في تطويع ومساءلة المفهوم لغويًا ودلاليًا وابستيميًا، بما يخدمه – تداوليًا – في النَّسق الذي ينتظم فيه.

في مشروع هذا البحث، سعينا إلى مراجعة المفهوم العلمي مفهوميًا، وإلى استعراض بعض من المفاهيم العلمية المتداول استخدامها في عملية البحث الجاري في علم الاتصال؛ كما حاولنا أن نشرحها في إطار أصل المفهوم ودلالته

[1] – المؤلف المراسل، أستاذ محاضر – ب- بقسم الصحافة، كلية علوم الإعلام والاتصال والسمعي البصري، جامعة صالح بوبنيدر - قسنطينة 3.

وتوظيفه... قبل أن نتطرق إلى مسألة المفاهيم الناشئة من تزاوج التكنولوجيا بالاتصال، ثم وأخيرًا إلى رهانات "المفهوم" في علوم الاتصال والإعلام.

كلمات مفتاحية: المفهوم، الاتصال، التَّداول، النَّقل، التَّبيئة، النسق المعرفي.

Abstract :

This research proposes the idea of focusing on the movement of using and generating the scientific concept in the sciences of communication and information. for many years the process of intellectual construction in this field has been strengthened by the justification that communication is the science of intersections, evolving through theoretical diversification and intersection of knowledge when examining with communication and information phenomena.

This research identifies two approaches to the adoption of the concept to and from the field of communication; **the first way** is transmission, which expresses the machinical style of using a concept that my distract from meaning rather than simplify it. **The second way** is adaptation it expresses an activity in adapting the concept linguistically, semantic and epistemologically to serve it in the system in which it is organized.

In this research project, we sought to review the scientific concept conceptually, and to review some of the scientific concepts used in the ongoing research process in the science of communication; we also tried to explain them in the context of the origin of the concept and its significance and its uses, before we address the issue of concepts emerging from mating Technology to communicate, and then finally to the "concept" bets in communication science and information.

Keywords: concept, communication, circulation, transfer, adaptation, cognitive system.

مقدمة:

يُشكل الإطار المفاهيمي لمختلف الحقول المعرفية جوهر تطور حركة البحث العلمي؛ ذلك أن هذا الإطار يُترجم جملة التَّصورات والهواجس

والاستدلالات الذهنية التي تحوم في ذهن الباحث/ المفكر عند تناوله للحقائق والظواهر العلمية، فالإطار المفاهيمي هو بمثابة الأدوات الذهنية التي يتم توظيفها في فهم واستيعاب الواقع المعيش وظواهره.

ولهذا تسهمُ عملية بناء وتوليد المفاهيم العلمية في أيِّ حقل معرفي على تشجيع الباحثين والدَّارسين بالحفرِ أكثر في الظواهر الاجتماعية المدروسة، لما توفِّره من فرص ومهارات التَّحكم والتَّفسير والتأويل والمقارنة والتَّنبؤ... على اعتبار أنَّ المفهوم– وفق هذا التَّصور - أداة فاعلة تُستخدم في شرح وتوضيح وتبسيط الصور المعقَّدة عن هذه الظواهر الاجتماعية التي يتم تناولها.

وفي هذا الجانب، تُثير الكثير من المفاهيم المتداولة في حقل العلوم الانسانية والاجتماعية استفهامات علمية تمس أصل المفهوم من الأساس وعلى مستويات مختلفة؛ لسانية، دلالية وإبستيمية... استفهامات تفتح باب التساؤل حول مشروعية استخدام وتوظيف وتداول مفهومٍ معيَّن في هذه العلوم، خصوصًا إذا كان هذا المفهوم من نسقٍ معرفيٍ مغاير.

وعلوم الاتصال والإعلام كغيرها من العلوم الانسانية والاجتماعية تحاول دائماً الوصول إلى جملة المفاهيم والمصطلحات العلمية القادرة على شرح ظواهرها إحقاقاً لما يعرف بـ "المعرفة المتخصصة"، فلطالما أعيب إن صحَّ التعبير على هذه العلوم تبعيتها المطلقة لتخصصات علمية أخرى، وتوظيف مفاهيمها ومناهجها بل وحتى قضاياها المستقاة في شرح وتحليل الظواهر الاتصالية والإعلامية التي يثيرها الباحثون.

وفي علوم الاتصال بالذات – العلم محلَّ البحث – تظهر لنا الكثير من المفاهيم العلمية التي تحتاج إلى مساءلة وإلى تحقيق علمي في مشروعية توظيفها؛ حيث يصطدم القارئ والمتتبع للمعرفة في هذا الحقل بالكثير من المفاهيم التي يتم استقاؤها وجلبها من علوم مغايرة – بعيدة النَّسق أو قريبة – بطريقة ميكانيكية، دون التفكير حتى في سيْقنتها وتبيئتها (تطويعها) بما يلائم طبيعة وخصوصية ما سيُشتغل عليه، وفي حالة ما تمَّ ذلك: تبيئة المفهوم، نكون أمام عملية نقل "المفهوم" بطريقة خاضعة للفهم والتأويل أكثر، أي عملية تبيئة وليست ميكانيكية.

وما من شك في أن عملية "تبيئة" مفهوم معين من حقله المعرفي الأصلي إلى حقل أخر كان نتيجة الحاجة إليه "الحاجة إلى التعبير عن الظاهرة"، وبالتالي فالهدف من هذه العملية كما يقول **محمد عابد الجابري** هو هدف إجرائي، الباعث وراء توظيفه هو الحصول على نتائج يصعب إن لم يكن يستحيل الوصول إليها من دونه. (الجابري، 2000، صفحة 10) لذلك فعملية النَّقل بشكل عام، تصطدم بمعوق ابستمولوجي؛ هل نقل هذا المفهوم إلى حقل ما جائز ابستمولوجيًا؟ خصوصًا وأننا سنتحدث عن حقل - علوم الاتصال والإعلام – الذي يثير استفهاماً في علميته أصلاً !

واستتباعًا لما سبق تُثار إشكالية البحث في الآتي:

ما طبيعة المفهوم المتداول في علوم الاتصال والإعلام؟ وما هي آليات توظيفه في نسقها المعرفي؟

و تنضوي تحت هذه الإشكالية، التساؤلات التالية:

ما أهمية الجهاز المفاهيمي في سيرورة البحث العلمي؟

ما أهم الحقول المعرفية التي تستقي منها علوم الاتصال مفاهيمها المتداولة؟

أيَّ مشروعية في نقل مفهوم ما إلى حقل الاتصال دون تبيئة؟

ما هي رهانات المفهوم العلمي في علوم الاتصال خصوصًا في ظلِّ البيئة التكنو-اتصالية الجديدة؟

1. علم الاتصال والحاجة إلى التخصصات الأخرى.

يقول Bernard Miege أن علوم الإعلام والاتصال قد انبثقت "لأن مجتمع الاتصال بحاجة إلى علم يدرس عمليات الإعلام والاتصال النّاجمة عن أعمال منظمة هادفة، مرتكزة على التقنيات ومشاركة في أشكال التواصل الاجتماعية والثقافية" (Miege, 1995, p. 84)، فالمجتمع الإنساني بحاجة إلى علم يفسِّر ويفهم ظواهره الاتصالية المختلفة؛ علمٌ بإمكانه أن يستوعب الحياة اليومية بمختلف سلوكيات أفرادها وطقوسهم وتجاذباتهم فيما بينهم؛ فالظاهرة الاتصالية ظاهرة انسانية معقَّدة؛ لكونها:

- عملية منتشرة زمانًا ومكانًا؛
- عملية مستمرة في الماضي إلى الرَّاهن صوب المستقبل؛

- عملية ترتكز على المشاركة والتَّفاعل في الأحداث الجارية؛
- عملية قابلة للتَّنبؤ في إطار إدراك الحاضر ورسم خِطط المستقبل.

وما من شك في أن علم الاتصال يعيش حالة من **التبعية المعرفية** لحقول وتخصصات أخرى إنْ على مستوى البنى النظرية والفلسفية المؤسسة له أو على مستوى المفاهيم والأدوات العلمية المستخدمة فيه... إنَّه في النهاية علم **متعدد التخصصات** كما يقول الفرنسي Dominique Wolton، طالما أنه علم يشتكي غياب بناء فكري مشترك ويستند إلى التنويع النظري ومن ثمَّة فهو يتطلب التبادل بين الباحثين في حقول معرفية مختلفة. (Wolton, 1997) أو هو على أفضل حال كما يوصف بـ "علم ملتقى" Science jonction، دلالة على استفادته من ميادين عدة للمعارف. (Laramée & Bernand Valllée, 1991, p. 78)

ويستدل **عبد الوهاب غالم** فيما ينقله عن Phlippe Cabin وأخرون في مسألة "تعدد التخصصات" بالتَّقرير الذي أعده Dominique Wolton بطلب من المركز الوطني للبحث العلمي CNRS والذي جاء فيه "أن ميدان الاتصال لا يستطيع، بل لا يجب أن يكون موضوع علم موحد، فهو بطبيعته ميدان متشعب، يخص ثلاث قطاعات كبرى؛ والتي تتمثل في "العلوم العصبية"، و"العلوم المعرفية" و"العلوم الاجتماعية"، كما يخص العديد من التخصصات على غرار الفلسفة، الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، الجغرافيا، التاريخ، الحقوق، العلوم السياسية، علم النفس... (غالم، 2013).

وعلى أرض الواقع المعرفي – أكاديميًا – لا يُمكن لعلوم الاتصال أن تستقل عن العلوم الإنسانية والاجتماعية؛ فهي تستلف مناهجها وأدواتها ومقارباتها النَّظرية والمعرفية باستمرار، بل وتستأنسُ أحيانًا بمواضيع وهواجس علمية من صلب هذه العلوم، فالظاهرة الاتصالية هي ظاهرة اجتماعية انسانية مرتبطة بالزَّمان والمكان والإنسان؛ لذلك فالباحث في حقل الاتصال يجد نفسه في كل مرة رهين إرث معرفي ثقيل في هذه العلوم إنْ على المستوى المنهجي أو على المستويين النَّظري والميداني.

2. المفهوم العلمي: مراجعة مفاهيمية.

تُعد المعرفة العلمية بناءٌ منظَّم من الأفكار والتَّصورات، يبدأ فيها هذا البناء من الواقع ويخلُص إلى تفسيره؛ ولهذا فالعالِم Scientist هو بالأساس إنسان يسلك طريقًا خاصًا للحصول على هذه المعرفة مستندا إلى مجموعةٍ قواعد عامة تُهيمن على سير العقل وتحدِّد عملياته، حتَّى يصل إلى نتيجة معلومة، وهذه القواعد هي ما يُعرف بالمنهج العلمي. (عبد العظيم، 2009/ 2010) ويُدرك معظم العلماء أنَّ هذه المعرفة العلمية الحقَّة لا تتحقق إلا باللاَّ تحيز والرؤية بموضوعية تُجاه الظواهر والموضوعات التي ندرسها على الرغم من أنَّه قد يستحيل على أي شخصٍ تحقيقه بالكامل، فالاجتهاد في تحقيق هذه الموضوعية يزيد من فرص مصداقية التَّقدم العلمي ويوسِّع من رغبة المجتمع في الاستفادة أكثر من المعرفة الجديدة وفهم العلوم.(Higgins, 2006) وفي كل الحالات فالعلم بحاجة إلى تصحيح ذاتي والكثير من التراكمية قصد انتاج معرفة موثوقة، على اعتبار أن النتائج العلمية تبقى عملًا قيد التَّقدم، وما يصلح في السياق (أ) قد لا يصلح بالضرورة في السياق (ب). (The National Academies of Science, 2007)

ويُشار إلى **المفهوم العلمي** على أنَّه بناء عقلي يكوِّنه المتعلم نتيجة إدراك العلاقات أو الخواص أو السِّمات المشتركة بين مجموعة من المثيرات، ويُمكن المتعلم من تصنيف مجموعة المثيرات في فئة معيَّنة يُعبِّر عنها بمصطلح معيَّن له دلالته اللَّفظية. (الزهراني، 2007)

ويُبسَّط المفهوم العلمي فيما يُنقل عن **ميرل وتينسون** أنَّه "عبارة عن زُمرة من الأشياء أو الرموز أو الحوادث جُمعت بعضها إلى بعض على أساس خصائص مشتركة يُشار إليها باسم أو رمز معيَّن". (عبد الحميد، 2010).

وتعدّدت تصنيفات المفاهيم تبعًا لتعدد الرؤية للمفهوم من قبل الباحثين وتبعًا لتخصص الباحث، لذلك نجد تصنيفات المفاهيم تأتي متداخلة فيما بينها أحيانًا، أن المفهوم الواحد يمكن أن يكون في صنف معيَّن وفي صنفٍ ثانٍ دون حدوث تقاطع في ذلك، وحسب **هوفر** فإنَّ تصنيفات المفاهيم تكون على النحو الآتي: (المزيدي، 2012، الصفحات 11 - 12).

المفهوم التصنيفي (Classificational concept): وهو الذي يصف الخصائص الأساسية ويحددها ويوضحها.

المفهوم الارتباطي (Correlational concept): وهو الذي يركز على العلاقة أو العلاقات بين مفهومين عرضيين أو أكثر.

المفهوم النَّظري (Theoretical concept): وهو المفهوم الذي يتضمن علاقة أو علاقات بين الأفكار.

حتى وإن اختلفت تصورات الباحثين فيها بينهم تجاه "المفهوم" ظاهريًا، إلا أنّ هناك ما قد يُشترك فيه: (http://educapsy.com, 2014)

عناصر المفهوم	حسب برونير	حسب فيرنيود	حسب لوجوندر	حسب الفلاسفة
1	التَّسمية	الدلالات والتَّرميزات	تمثل ذهني عام	فكرة عامة ومجردة تسمح بتصنيف الموجودات والموضوعات
2	الخصائص الأساسية	الثوابت الإجرائية	الخصائص الثابتة والمشتركة	الفهم
3	الأمثلة	الوضعيات	التعميم	الامتداد

جدول (01) يوضِّح تصورات المفهوم وفقًا للباحثين.

3. تبني المفهوم العلمي: بين الإستلاف الميكانيكي والتبيئة.

إنَّ قيمة المعرفة عامةً تُقاس بالمفاهيم التي تخلقها أو تلك التي تُجدِّد في معانيها؛ أمَّا عملية نقل مفاهيم الغير – الحقول المعرفية الأخرى – ومحاولة تسويغ هذا النَّقل بالبحث عن سوابق لها في التُراث العربي الإسلامي؛ فيجب أن يخضع للمُساءلة والنَّقد، كما يجب أن تخضع تلك المفاهيم لعملية كشف مستمرة عن ظروف نشأتها وخلفياتها المعرفية، خاصةً وأنَّ المفهوم لا فعالية له إلا داخل النَّسق الذي ينتظم فيه. (صديقي، 2010).

ويؤكد **الجابري** أن المشكلة التي يطرحها نقل مفهوم من حقل معرفي إلى أخر مشكلة لها تاريخ ولها مرجعية في فلسفة العلوم المعاصرة، خصوصاً حينما

يتعلق بتاريخ العلوم الإنسانية الحديثة في الحقل الثقافي الأوربي، ويضيف أن هذه العلوم لم تنفصل عن الفلسفة – بالتعبير الشائع – إلا ابتداءً من القرن السادس عشر، حينما بلغت العلوم الرياضية والطبيعية أوجَّها بعد أن انفصلت واستقلت بنفسها. وفي هذا الصدد كان قد نبَّه إلى أن العلوم الحديثة إذا كانت قد استقلت عن الفلسفة، فإنها بقيت تقلِّد بعضها بعضًا لمدة من الزمن؛ فقد كانت الرياضيات هي النموذج الأعلى للمعقولية، وقد انفصلت الفيزياء عن الفلسفة عندما بنت نفسها على غرار الرياضيات، بل وأصبحت الفيزياء علمًا لكونها اعتمدت الرياضيات في صياغة قضاياها حتى أصبحت "الصياغة الرياضية للظواهر الطبيعية"، وكذلك نقلت الفيزياء إلى ميدانها مفاهيم جديدة من فضاء الرياضيات، فوظَّفت مفاهيم الهندسة والجبر توظيفًا تطبيقياً. (الجابري، 2000، صفحة 11).

وقد أشار **المنصوري** إلى أن هنالك ارتباط وثيق بين الظواهر الطبيعية والظواهر الثقافية الانسانية؛ على أساس أنه كانت فيه مقاربة للظواهر الثقافية الانسانية بمفاهيم مستعارة من العلوم الطبيعية، اعتبارًا للخصوصيات المتفردة للظواهر الإنسانية وهو ما كانت – حسبه – تنكره المدارس الماركسية والفلسفات الوضعية والمقاربات التي وظَّفت مقولات الداروينية الاجتماعية في الاقتصاد والسياسة والاجتماع Social Darwinism. (المنصوري، 2012، الصفحات 16 - 17).

وبمراجعة أفكار بعض العلماء والدَّارسين في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية نجد أنَّ فعل "نقل وتبني المفاهيم" كان واردًا لدى هؤلاء؛ إذ أن السوسيولوجي أوغست كونت كان معروف أنه سمى علم الاجتماع بـ "الفيزياء الاجتماعية" وقسمه على غرار الفيزياء الطبيعية إلى الديناميكا الاجتماعية والستاتيكا الاجتماعية مستعيراً بمفهومي الديناميك والستاتيك من حقل الفيزياء إلى حقل الاجتماع. (الجابري، صفحة 11).

كما نجد النفساني **سيغموند فرويد** في التحليل النفسي قد وظَّف بعضًا من مفاهيم الفيزياء والاقتصاد في تحليله النفسي بعد أن بيَّأها في حقله المعرفي مثل مفاهيم المقاومة، الدفاع، الانتكاس، التصعيد، التثبيت والاسقاط... وكذا

مفاهيم التحويل، التكثيف، التوفير والإنفاق... وهي المفاهيم التي صارت معه مفاهيمًا أساسية وضرورية في السيكولوجيا. الأمر نفسه مع السوسيولوجي الاقتصادي **كارل ماركس** حينما وظَّف مفاهيم وتصورات الرياضيات والفيزياء في تحليله للاقتصاد الرأسمالي مثل مفاهيم قِوى الانتاج، علاقات الإنتاج، فضل القيمة، الرأسمال الثابت والرأسمال المتغير... وغيرها من المفاهيم التي نقلها إلى حقل الاقتصاد والاجتماع. (الجابري، صفحة 11) وغيرُ هؤلاء المفكرون كثيرون الذين استعاروا بعض المفاهيم من حقول مختلفة إلى الحقل الذين يشتغلون عليه.

بل حتى في التراث الإسلامي العربي، كانت مسألة انتقال المفاهيم من حقولها الأصلية إلى حقول معرفية أخرى مستقبلة لها، يشكِّل ثابتًا معرفيًا ومسألة محورية في معارف التراث الإسلامي(...) إلى هذا يقول **محمد بنعمر** أنَّ الحضارة العربية عند عدد من الباحثين كانت توصف بين الدّارسين بحضارة التفسير والبيان والتأويل؛ إذ لا تفسير من دون استحضار علوم اللغة والاستعانة بعلوم الآلة التي هي بوابة البيان وأساس التفسير ومرجع التأويل. (بنعمر، 2019، صفحة 85).

ويُقصد بالتَّبيئة "ربط المفهوم بالحقل المنقولِ إليه ربطًا عضويًا، وذلك من خلال بناء مرجعية له فيه تمنحه المشروعية، وعملية بناء المرجعية للمفهوم في الحقلِ المنقولِ إليه، تتطلب بالضرورة الاطِّلاع على مرجعيته الأصلية... بمعنى أخر، استحضار تاريخيتها، وذلك حتى يتأتَّى التَّعامل مع المعطيات والتَّصورات التي وُضع المفهوم للتعبير عنها في الحقل الأصل، والمعطيات التي يُراد من ذلك المفهوم التَّعبير عنها في الحقل الفرع، مع الاحتفاظ دائمًا بالفارق، ولكن لا بوصفه جدارًا حديديًا، وانَّما باعتباره جسرًا ومعبرًا. (الجابري، صفحة 14).

إنَّ المفاهيم العلمية هي مفاهيمٌ طيِّعة، ولهذا يتحدث **عبد الوهاب المسيري** في كتابه "اللغة والمجاز بين التَّوحيد ووحدة الموجود" عن **"تحيُّز المفاهيم"** وارتباطها بمعجمها الحضاري وسياقها التَّاريخي الذي نشأت فيه وكذا بصاحبها الذي أتى بها، إذ يؤكد أنَّ كل دال متجذر في تشكيل حضاري فريد (...) ويُشير إلى ظواهر بعينها دون غيرها. كما أنَّ الدال بطبيعته لا يشير إلى مدلول خارجي

فحسب، وإنَّما يحتوي أيضًا على وجهة نظر من سكَّه وزاوية رؤيته وتصوره. وعليه فتحيز الدَّال مزدوج؛ تحيز سياقه من جهة، وتحيز من صاغه من جهة ثانية. (صديقي، 2010).

هذا عن تاريخ نقل وتبني المفاهيم العلمية، أمَّا في الوقت الحالي فالأمر لا يختلف كثيرًا، وإن كانت عملية النَّقل والتَّبني عملية ميكانيكية أكثر – من وجهة نظر البحث – في مختلف الحقول والعلوم الانسانية والاجتماعية؛ إذ نجد بعض المفاهيم العلمية تتداول في أكثر من حقل معرفي يتم توظيفها للتعبير عن مدلولات معيَّنة، توظيفٌ قد لا يخدم في بعض الأحيان توصيف وتبسيط المفهوم ذاته، وبالتَّالي يعرقل من عملية إدراك معنى المفهوم واستيعابه لدى الباحث أو الطالب على حد السَّواء.

وفي حقل الاتصال والإعلام، نجد بعض المفاهيم العلمية التي ترد في لغة البحث مثل مفاهيم الفرد/ الإنسان/ المواطن – لا للحصر -... وغيرها من المفاهيم التي يُراد بها في الكثير من المرات التعبير عن مفردة البحث التي تكون محور عملية التلقي، مع أن المفهوم الدقيق هنا هو "**المُتلقي**" وليس شيء أخر... على أساس أن "الفرد " مفهوم سوسيولوجي أكثر منه عام، و"الإنسان" مفهوم سيكولوجي أكثر منه شيء أخر، والمواطن مفهوم سياسي بحت... وهكذا. فيما المتلقي أو المستقبل يعبر وفقط عن (فعل التلقي: تلقي المضامين والمنتجات الإعلامية المنوَّعة).

بل أنَّ هذا الخلط يمتد ليصِل إلى بعض الإجراءات المنهجية في البحث؛ فحينما يتعلق الأمر **بتحليل المحتوى** نجد أن الباحثين ينقسمون فيما بينهم بين من يعتبره تقنية بحث، وبين من يعتبره منهج بحثي، مع أن الاختلاف كبير بين التقنية والمنهج العلميين... مثل هذه التَّعارضات المفاهيمية أو حتى الاصطلاحية تزيد من الـلاَّ ثقة في نفسية الباحث، كيف لا ومفاتيح البحث يعتريها شكُ الدلالة.

من بين المفاهيم التي تم تبيئتها بشكل عمودي نجد مفهوم **الجاذبية** وهو مفهوم فيزيائي محض، تم استعارته إلى حقل علوم الاتصال والإعلام وبالضبط عند استعراض خصائص القائم بالاتصال؛ فإلى جانب القوة Power والمصداقية

Crédibilité يستخدم المهتمون بدراسات القائم بالاتصال مفهوم "الجاذبية" Attractive للتعبير عن الصحفي أو القائم بالاتصال الذي يملك مهارات استمالة المتلقي ولفت انتباهه بحضوره المميز في أداء رسالته... فمثل هذه المفاهيم يجب التَّأكد من توافقها الدَّلالي مع مدلول ما نشيرُ إليه – خصيصة البحث.

ويمكن استعراض بعضاً من المفاهيم العلمية التي استقاها حقل الاتصال والإعلام من حقول معرفية أخرى – إلى جانب ما سبق - في:

الجريمة المعلوماتية: مفهومٌ أخذ من حقل العلوم القانونية "الفرع الأصل" وتمَّ توظيفه في علوم الإعلام (الحقل المنقولِ إليه)؛ ويقصد بهذا المفهوم كل فعل غير قانوني يتم باستخدام الوسائل والمنصات التكنولوجية، يحصل فيها المجرم الالكتروني على فائدة مادية أو معنوية ما. حيث أنَّ هنالك استلاف مفهوم قانوني، وربطه لغويًا بالنظام التقني، فيه تركيب (الجريمة + الالكتروني)، الحكم على فعل الاستخدام بالمشروعية القانونية، هنا لا وجود لتطويع مفهوم الجريمة، وانما تطويع الموضوع لصالح المفهوم.

التسويق الإلكتروني: مفهومٌ أخذ من حقل العلوم الاقتصادية والتجارية "الفرع الأصل" وتمَّ توظيفه في علوم الاتصال/ العلاقات العامة (الحقل المنقولِ إليه)؛ حيث يقصد به استراتيجية تهدف إلى تحويل السوق الافتراضية إلى واقع ملموس باستخدام تكنولوجيا الاتصال الحديثة، مرةً أخرى نجد استلاف مفهوم تجاري محض وربطه بالنظام التقني. لا وجودة لممارسة التطويع والتكييف بما يُلائم خصوصية المفهوم في حقله الجديد.

التغذية العكسية: وهناك من يطلق عليها اسم التغذية الراجعة، هذا المفهوم هو مفهوم رياضي (الحقل الأصل) ويتم توظيفه باستمرار في الحقل الاتصالي للدلالة، على الاستجابة التي يبديها المتلقي عند استلامه للرسالة الاتصالية (أ)، فلو حاولنا إيجاد أشباه أو نظائر لهذا المفهوم لوجدنا "رد الفعل" على اعتبار أنَّ الدلالة اللغوية هي دلالة واحدة، فقط من بعث باسم "التغذية العكسية" أراد أن يعطي الدلالة الميكانيكة في حركة العملية الاتصالية واستمراريتها، على اعتبار أنَّ لكل فعل رد فعل له.

قياسًا بما سبق؛ فإنَّ تمازج الحقول فيما بينها مفاهيميًا أمرٌ طبيعي بل وظاهرة صحية معرفيًا – إن جاز التَّعبير -، فكثيرًا ما كنا نجد مفاهيم علم الرياضيات في القانون بأنواعه، ومفاهيم الفيزياء في علم النفس ونظرياته، ومفاهيم اللغة في الفقه بأشكاله... مشروعٌ هذا التمازج والاستلاف المفاهيمي إذا كان خاضعًا لممارسة التكييف والتطويع مع خصوصية الميدان المنقولِ إليه، وهذا ما حدث تماماً مع التَّصوف؛ الميدان الفكري الذي أخذ مفاهيمًا كثيرة من حقول مختلفة، فقط أنَّه أضفى مع كل مفهوم أبعاد ومعانٍ ودلالات مغايرة.

إذن الحاجة إلى التَّعبير عن معطيات وأفكار وصور جديدة، هو الذي دفع بالباحث في علوم الاتصال إلى عملية استلاف ونقل لمفاهيم خارجة عن تخصصه، فرؤيته الفاحصة لوجود هواجس أو علاقات معيَّنة واكتشاف تصورات جديدة تمس الظاهرة الاتصالية والإعلامية هو الذي دفع به إلى التَّعبير عنها لغويًا، فوجد نفسه مضطرًا لاستخدام قاموس خارج قاموسه المتاح، بغض النَّظر عن إمكانية خلق وإبداع مفهومٍ جديد يتماشى وخصوصية الميدان الذي يشتغل فيه.

4. تزاوج التكنولوجيا بالاتصال: نحو مفاهيم "تكنواتصالية" جديدة.

يعود فضلُ "قاموس تكنولوجيا الاتصال" الذي نستخدمه اليوم، إلى الخبراء والمتخصصون الأوائل الذين وضعوا أهم الأسس الفكرية والتكنولوجية للإعلام الجديد، وهم الذين لا ينتمون إلى حقل الإعلام، وإنَّما إلى حقول ومجالات بعيدة أقرب إلى المجال التقني والرِّياضي، وذلك مذ أن نشر فانفر بوش Vannevar Bush مقاله الشهير عام 1945 "كما يجب أن نفكر"، والتي جسَّد فيها أفكاره الأولى حول علاقة عقولنا بالآلة الهندسية، وهي ذاتها الأفكار التي مهَّدت لظهور شبكة الواب فيما بعد، (صادق، 2009، صفحة 28) وكل ما له صلة بتفاعل الانسان مع التقنية.

وتُعطي هذه الانطلاقة التاريخية لتوجه "الإعلام الجديد" مؤشرًا كافيًا بأنَّ الفكر الاتصالي والإعلامي بشكل عام كان ولا يزال ممتنًا لإسهامات الحقول المعرفية البعيدة كالعلوم التقنية... حيث انعكس هذا الاسهام في عمق المفاهيم والمصطلحات العلمية التي يستحدثها ويستخدمها الباحثون في مناقشة

أفكارهم والبحث في مختلف الاشكاليات العلمية التي تفرزها الظواهر الإعلامية والاتصالية المدروسة، وهذا بفعل التزاوج الحاصل بين التكنولوجيا الحديثة من جهة والمعلومات والأفكار والأحداث من جهة ثانية.

حيث نجد في إطار محصِّلة التَّزاوج الحاصل، مصطلح يرِد بقلة في أفكار وحتى كتابات بعض الباحثين وهو مصطلح "البول الإعلامي" الذي يقصد به الفجوة المتزايدة بين عالم الشمال – المتقدم –، وعالم الجنوب – السائر في النمو- في تملك وتبني وتوظيف تكنولوجيات الإعلام والاتصال TIC، وهذا المصطلح من الناحية اللغوية يحمل معه الكثير من الاستفهامات، لكنه مع مرور الوقت قد يتبناه الباحثون في كتاباتهم ! بغض النَّظر عن مشروعيته الإبستيمولوجية والدلالية.

وقد اشتغلت الباحثة **بصافة** على مفهوم "**العصبية الافتراضية**" في أطروحة دكتوراه ضمن حقل علوم الاتصال، أين أصبغت البعد الاتصالي في إشكاليتها العلمية عند تناولها لهذا المفهوم؛ إذ تُعرِّف العصبية الافتراضية – تبعًا لإشكاليتها المُثارة- على أنَّها: (بصافة، 2018، صفحة 15).

"ظاهرة اجتماعية واتصالية في موقع شبكات التَّواصل الاجتماعي الفيسبوك، التي تقوم على رابطة القرابة والصداقة بين المبحوثين في صفحاتهم الشخصية؛ حيث يشكِّلون عُصبات تلتحم فيما بينها على أساس احتواء المقرَّبين واستبعاد الغرباء، وينتمون إلى جماعات افتراضية حسب توجهاتهم (جندرية، أكاديمية مهنية، اثنية، جغرافية) مشكِّلين بذلك قبائل وعشائر افتراضية (...) وتظهر هذه العصبية في ممارساتهم الاجتماعية والاتصالية القائمة على التَّماسك والتَّلاحم والولاء لجماعة الانتماء، واحترام المعايير الاجتماعية".

إذن؛ يحصلُ أن يكون المفهوم المستخلص حُصالة مفاهيمية لأكثر من تخصص معرفي؛ فـ "العصبية" التي استُلَّت من حقل علم الأعصاب من جهة ومن علم الاجتماع من جهة ثانية، تمَّ ربطها بمفهوم ثانٍ وهو مفهوم من "الإعلام الآلي": الافتراضية، للتَّعبير عن تلك الجماعات التي تنشط عبر منصات التواصل الاجتماعي والتي تربطها علاقات اجتماعية، وتجمع بينها خصائص وملامح مشتركة، لتُشكِّل جماعة واحدة في هذا الفضاء. مع أنَّ هذا المفهوم المشكَّل

يطرح إشكالًا على المستوى الابستمولوجي، فهل تمَّ تبيئته وفقًا لخصوصية الحقل المنقولِ إليه (الحقل الفرع)؟ أم أنَّ دلالاته ومعانيه في حقلها الأصلي قادرة على احتواء دلالته ومعانيه في حقله الحاضن/ المنقولِ إليه.

5. رهانات "المفهوم" في علوم الاتصال والإعلام.

إنَّ المشكلة التي نراها مستمرة في عملية البحث والتقصي في الظواهر الاتصالية والإعلامية، هي توظيف الباحثين لبعض المفاهيم التي يستقونها من حقول معرفية أخرى إلى حقل الاتصال – بطريقة ميكانيكية – دون فحصها وتطويعها بما يخدم المعنى قبل توظيفها في تصوراتهم المعرفية كحل أو منفذ علمي مشروع، ما يجعل من المعرفة في هذا الحقل قاصرة في شرحها للظاهرة موضع البحث بمفاهيم علمية أكثر صدقًا وتوفيقًا. فمن الجدير معرفيًا أن نسائل مفهوماً كمفهوم "جاذبية القائم بالاتصال"، استعِير من الفيزياء وتمَّ مزاوجته بالاتصال ! للتَّعبير عن صفات شكلية وسيكولوجية تتوفر في الفرد الذي يقوم بنقل رسائل إعلامية. ما يطرح تساؤلًا وجيهًا: ماذا ينقص حقل الاتصال لخلق وتوليد مفاهيم أكثر استقلالية؟

يظهر أن مسار البحث في مجال الاتصال والإعلام يعتريه الكثير من المعوقات، طالما أن الباحث الاجتماعي/ الاتصالي يبقى يشتغل بعيداً عن عالم الحياة اليومية كما يسميه Erveng Goffman... إنَّ الاجتهاد في خلق المفهوم وتوليده يتم حتماً بالنزول إلى الميدان ومشاركة الفاعلين بداخله، فالمجتمع فضاء لا حدود له في انتاج المعاني، وهذه المعاني لا تتجسد إلا بالاتصال.

وترتبط رهانات المفهوم في حقل الاتصال، بجملة الملاحظات المسجَّلة الآتية:

تعارض الدال والمدلول في بعض المفاهيم المتداولة داخل النسق المعرفي في حقل الاتصال؛ وهذا يُعطي مؤشر بأنَّ المُشكلات المرتبطة بالمفهوم هي مشكلات لا لسانية وإنَّما دلالية صرفة، وإلا لكان المشكل مشكل مصطلح لا مفهوم؛

واستتباعًا للملاحظة الفائتة، المشكلة تمتد إلى دائرة المصطلحات إذ غالبًا ما نجد في علوم الإعلام والاتصال مشاكل التَّداول اللغوي خصوصًا في حركة

الترجمة، أين يصطدم الباحث ببعض المفردات المترجمة من لغتها الأصل والمشكوك فيها، كـ الأخلاقيات، وسائل الإعلام... مثلًا لا للحصر.

تجاهل سياق/ أو محيط تداول المفهوم عن سياق توليده؛ على اعتبار أن العملية البحثية تحدث ضمن سيرورة اجتماعية وثقافية لا يُمكن التَّفكير خارج حدودها، ضف إلى ذلك أنَّ إضفاء دلالات ومعانٍ جديدة على مفهوم من حقله الأصلي يتطلب تطويعًا بما يناسبه في حقله الفرعي/ الجديد، وبما يخدمه ويبسطه، لا بما يُشتِّته.

تأخذ بعض المفاهيم العلمية طابعا انطباعيًا ظرفيًا نتيجة خبرة ما، دون محاولة البحث عن جدوى لهذا المفهوم ومشروعية تداوله في النسق المعرفي الخاص بعلوم الاتصال، فلا للحصر مثلًا نجد استخدام أحد الباحثين لمفردة "الذباب الإلكتروني" للتَّعبير عن بعض مستخدمي المنصات الاجتماعية الذين يلتفون حول فكرة أو موضوع أو قضية معيَّنة دون أن يكون لهم أدنى معرفة أو وعي حقيقي بحقيقة القضية المثارة، لتأتي هذه المفردة بنية تقزيم حضورهم في الفضاء الافتراضي، ولكن السؤال الذي يُطرح: أي أصل وأي دلالة لهذه الكلمة – التي استخدمت ظرفيًا -؟

التَّطورات التكنولوجية التي رافقت الفضاء الإعلامي والاتصالي عمَّقت من أزمة توحيد المصطلحات من ناحية الاستعمالات اللغوية وكذا الدلالية، على الرغم من أن صياغة المفاهيم المرتبطة بهذا الجانب غالبًا ما كانت عملية سهلة باعتبار القوالب الجاهزة والنَّقل الميكانيكي المباشر.

خاتمة:

إنَّ حقل الاتصال والإعلام كحقل معرفي جديد لا يزال يُصارع إنَّ صحَّ القول من أجل إثبات علميته؛ هذا الاثبات الذي كان ولا يزال تعتريه الكثير من العقبات إنْ على مستوى المنهج أو على مستوى الأدوات أو على مستوى الموضوع أصلاً.

واتكاءً على ما سبق، فإنَّ نقل المفاهيم العلمية بالأسلوب الميكانيكي الشائع حتمًا يزيد في عمق أزمات البحث في حقل الاتصال المحتشم معرفيًا، لأنَّ

عملية النقل الميكانيكي المباشر لكثير من المفاهيم المتداولة في نسقه لا مشروع من الناحية الإبستيمولوجية في أغلبه، على اعتبار أنَّه يطوِّع الموضوع لصالح المفهوم؛ وبالتَّالي هذا يزيد من تشويه الواقع والاعتداء على الحقيقة العلمية كما يقول الجابري. (الجابري، صفحة 12).

ويدفعُ بنا هذا البحث المُنجز إلى استعراض بعضًا من استفزازات الرَّاهن المنهجي والمعرفي في صورة هذه التساؤلات المشروعة: متى يتحرَّر القاموس البحثي في علوم الاتصال والإعلام من قواميس العلوم الأخرى؟ إلى متى يظلُّ النَّقل الميكانيكي من هذه الحقول العلمية الآلية الأولى بعيداً عن آلية التَّبيئة والتَّكييف الفكري؟ هل يمكن ممارسة طقوس الإدراك، التَّفسير والتَّأويل والتَّنبؤ... بلذَّة مطلقة بعيدًا عن قيود الضبط المنهجي الكلاسيكي، وبما لا يخل - في الوقت نفسه - من سيرورة البحث والانتاج بالشكل العلمي السليم. وبعد هذا: هل يُمكن الحديث في المستقبل عن استقلالية نسبية لهذا العلم المثقل بهموم إثبات علميته قبل إثبات أي شيءٍ أخر، دحضًا للاتهام الذي ورَّطه فيه Dominique Wolton حينما قال أنَّ الاتصال يبقى "مولودٌ غير شرعي" لباقي العلوم المعرفية الأخرى.

قائمة المراجع:

أولًا– توثيق الكتب

الجابري، محمد عابد. (2000). المثقفون في الحضارة العربية، محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد. بيروت/ لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

المزيدي، زهير منصور. (2012). مذكرة: صيد المفهوم Conceptualizing. *نموذج مزج العلوم*. الكويت: المؤسسة العربية للقيم المجتمعية.

المنصوري، المبروك. (2012). مكانة الدِّين في النَّهضة اليابانية والعربية، ط 1. تونس: الدَّار المتوسِّطية للنَّشر.

ثانيًا – توثيق الدوريات والملتقيات

بنعمر، محمد. (21 ماي، 2019). تداخلية العلوم في التراث العربي الإسلامي أثرها على رحلة المفاهيم. *مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية*، 85. غليزان، الجزائر.

عبد العظيم، حسني إبراهيم. (2009/ 2010). *مفهوم المعرفة العلمية ومكوناتها*. جامعة المرقب، محاضرات علمية في قسم علم الاجتماع والفلسفة، كلية الآداب والعلوم، ليبيا.

غالم، عبد الوهاب. (02 و03 ديسمبر، 2013). *تساؤلات حول إشكاليات التنظير في علوم الإعلام والاتصال، محاولة لرصد إسهامات الباحث العربي وسياقاته في التَّنظير*. الملتقى الدولي الثاني حول نظريات الاتصال المعاصرة - بين التَّنظير الغربي والتَّطبيق داخل المنطقة العربية، جامعة عمَّار ثليجي، الأغواط، الجزائر.

صادق، عبَّاس مصطفى. (07 - 08 و09 أفريل، 2009). مصادر التَّنظير وبناء المفاهيم حول الإعلام الجديد، من فانفر بوش إلى نيكولاس نيغروبونتي. *أبحاث المؤتمر الدوليحول الإعلام الجديد: تكنولوجيا جديدة لعالم جديد*. البحرين: منشورات جامعة البحرين.

ثالثاً- الرسائل والأطروحات

بصافة، أمينة. (2018). العصبية الإفتراضية في شبكات التَّواصل الاجتماعي: دراسة اثنوغرافية نقدية على عينة من مستخدمي الفيسبوك. *أطروحة دكتوراه في تخصص دراسات الجمهور*. كلية علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر 3، الجزائر.

رابعًا–المواقع الالكترونية

الزهراني، مديس. (15 أكتوبر، 2007). *المفاهيم العلمية وأهميتها في بناء المناهج المدرسية*. تاريخ الاسترداد 2019 10، 31، من مجلة الواحة، العدد 44: http://alwahamag.com

صديقي، علي. (06 أوت، 2010). *طبيعة المفهوم وإمكانية تأصيله*. تاريخ الاسترداد 24 أكتوبر، 2019، من المجلة العربية للنَّشر والتَّوزيع، 517: http://arabicmagazine.com

عبد الحميد، محمد صلاح. (24 04, 2010). *المفاهيم: تعريفها، خصائصها، تصنيفها وتدريسها*. تاريخ الاسترداد 24 10, 2019، من http://social-studies74.ahlamontada.com

http://educapsy.com. (13 فيفري, 2014). تاريخ الاسترداد 2019 أكتوبر, 31، من http://educapsy.com

خامسًا- مراجع باللغات الأجنبية

Bernard, Miege .(1995) .*La pensee communicationnelle* . Grenoble, France: Pug.

Dominique, Wolton .(1997) .*penser la communication* .Paris, France: Ed Flammarion.

The National Academies of Science, Engineenring, Medcine . (2007) *Communicating Science Effectively, A Research Agenda* . http://nap.edu تاريخ الاسترداد 19 09, 2019، من

Higgins, P. C. (2006). The Role of Science In Society. *Evidence & Policy (2), 2*, pp. 251 - 257.

Laramée, A., & Bernand Valllée. (1991). La recherche en communication éléments de méthodologie.